الفصل الثاني

الإبحار إلى قاع العالم!!

- الوداع الحزين في نزل فرناندیز
- رأس هورن وأكبر مقبرة للسفن في العالم!
- لولا الحظ البائس لما اكتشف سخوتن رأس هورن!
- وجبة العشاء.. طبق من الحساء!
- سفينتنا كعلبة كبريت بين كتل الجليد الضخمة!

عائلة فرناندیز
والوداع الحزين

يُقَدَّر عدد سكان مدينة "أشوية" حالياً بحوالي ٣٠ ألف نسمة، ولقد ازداد عدد السكان عن ذي قبل بسبب هجرة العديد من سكان المناطق الشمالية إليها وذلك لوجود فرص استثمار عديدة في المدينة والمناطق المحيطة بها، خاصة بعد ازدياد الحركة السياحية ويعمل ما يعادل ٥٠٪ من سكان المدينة بالأعمال الخاصة، و ٣٠٪ في المؤسسات الحكومية والباقي في قطاع الخدمات الأخرى.

أما أشهر المعالم السياحية فهو المنتزه الوطني الشاسع الذي تحميه وتحافظ عليه القوانين الصارمة لكي يبقى على حالته تلك. والجولات البحرية بواسطة الحافلات التي يُطلق عليها اسم "كاتاماران" حول الجزر والخلجان والسدود الجليدية. أما في الشتاء فيعتبر التزحلق على الجليد هو الهواية المفضلة لسكان المدينة وغيرهم. هذا إضافة إلى هواية صيد السمك ومغامرة الدوران حول رأس هورن حيث تقع أكبر مقبرة للسفن في العالم!

يقول رب العزة: "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم". وكما يقول المثل الدارج "كل تأخيرة وفيها خيرة"، فقد انقضت ثلاثة أيام وأنا أنتظر السفينة التي سوف تقلني إلى قاع العالم، ولقد كنت في أمس الحاجة إلى الراحة والإسترخاء الذي لم يكن ليتوفر لي لولا حظي العاثر مع السفينة الرئيسية ومديرها الأمريكي، رغم أن هذه الراحة قد أضافت أعباء مالية إلى أعبائي المثقلة أصلاً جراء رحلات سابقة.

رغم قصر المدة التي قضيتها مع عائلة فرناندين، إلا أنني أصبحت واحداً منهم ذلك لأنني المقيم الوحيد بالفندق الذي لا يرتبط بأي عمل كسائر النزلاء الذين يغادرون المنزل صباحاً ولا يعودون إلا مساءً.

ها تفتني ماريا صاحبة ومديرة المكتب السياحي قائلة: "عندي لك أخبار سارة أولاً لقد وجدت لك حجزاً على سفينة الأبحاث الكندية نورثرن رينجر، وثانياً سوف تبحر السفينة غدا في الساعة السادسة مساءً بدلاً من موعدها المقرر بعد أربعة أيام من الآن، ثالثاً تكلفة الرحلة سوف تكون أرخص من السفينة الروسية إلا أن المدة ستكون أقل حيث أنها سوف تستغرق سبعة أيام بدلاً من ١١ يوم، فما رأيك؟" قلت لها: أولاً شكراً على إهتمامك وهذا أفضل من الإنتظار أو العودة إلى بلدي دون تحقيق هدفي. سوف أتيك فوراً لإنهاء الإجراءات.

أنهيت إجراءات السفر استعداداً للرحيل في مساء اليوم التالي وذلك تحسباً لأية مفاجئات غير سارة أو غير متوقعة كعجوز أخرى قد تعترض طريقي أو تقلب فرحتي نكداً!

عدت إلى الفندق سيراً على الأقدام، إذ أن المسافة لا تستغرق سوى ثلث ساعة مشياً رياح باردة تهب على أشوية، فقد ضربتهاعاصفة ثلجية مساء الأمس حيث اكتست قمم الجبال بالجليد، كما تناثر على الطرقات السماء ملبدة بالغيوم الداكنة التي سرعان ما أمطرت نتفا من الثلج. عادت الشمس مرة أخرى بعد أن أزاحت أشعتها الذهبية الخافتة كُتلاً من تلك الغيوم السوداء، إلا أن الثلج لا زال يتساقط رغم حرارة الشمس الواهنة. كم أهوي التجوال بلا هدى وسط الجليد المتساقط، إنها عادة إكتسبتها أثناء إقامتي الطويلة في شمال أوروبا.. عرجت وأنا في طريقي إلى الفندق، على متجر لبيع المعدات البحرية طلبت من صاحب المتجر وبواسطة الإشارة طبعاً صارياً على أن يكون قصيراً. أخذ الرجل يسألني عن طول قاربي وعرضه وأسئلة أخرى ظنا منه أنني أريد الصاري للقارب وكان هدفي من الصاري هو أن أجعله سارية لعلم قطر الذي أخذته معي لكي أرفعه في أنتاركتيكا وبذا أكون أول من رفع علم قطر في تلك القارة في التاريخ.. بعد جهد حصلت على مرادي

ثم لم أنسّ وأنا في طريقي إلى الفندق أن أشتري المزيد من الأردية والجوارب الصوفية وقفازاً جلدياً مبطناً بالفرو فأنا راحل غداً إلى "أبرد" منطقة على كوكب الأرض

أخبرت السيدة "روز" وعائلتها أنني مغادر غداً مساءاً. وكنت قد دفعت لها أجرة المبيت حتى الغد مقدماً، ولم يبق سوى تكاليف الطعام والشراب، فطلبت منها إعداد الفاتورة لكي أدفعها غداً قبل الرحيل. ثم صعدت إلى غرفتي مبكراً لكي أكمل قراءة كتاب يروي قصة الأدميرال "ريتشارد بيرد" بعنوان وحيد، والكتاب يروي تجربة الأدميرال بيرد التي عاشها بالقرب من القطب الجنوبي وحيداً في فصل الشتاء ولمدة تربو على نصف سنة في واحدة من أعظم المغامرات الإنسانية وأكثرها تجرداً وسموا!

إستيقظت فجراً، وأي فجر ذلك الذي تختال فيه الشمس زهواً وهي في كبد السماء؟! لكنه فجر كما تشير إليه ساعتي على كل حال.

لقد أرهقني إستحمام الصباح في النُزول هذا اليوم، فالماء فيه إما أن يكون ساخناً جداً، أو بارداً جداً، ولا وسط بين الإثنين ولأنه لا خيار آخر فقد اخترت البارد القارس على الساخن الكاوي، وعزائي هو أنه آخر استحمام لي فيه، ولا أعرف كيف سيكون حال الماء في السفينة عندما أبحر عليها. إن ذلك هو همُّ الغد ومتى حملت للغد هماً؟!!

نزلت إلى مطبخ النُزول قبل أن يستيقظ الجميع، وأعددت لي قدحاً من القهوة.. آه كم أعشق هذه السوداء الدافئة.. كما أعددت شطيرة ثم عددت أدراجي إلى الغرفة لكي أستكمل قراءة الكتاب الشيق.. لقد أخذني الكتاب بعيداً وسرحت بفكري إلى ذلك المكان العجيب الذي قضى في ليله المكفهر المتجمد الأدميرال بيرد قرابة سبعة أشهر، القطب الجنوبي ذلك المكان الموحش ورغم وحشته إلا أنه كان ولا يزال ملهماً للكثير من المغامرين..

أفقت من سرحاني وتجوال خاطري الذي غاب بعيداً، على صوت الباب وهو يقرع ومن خلفه ابنة السيدة رونْ تدعوني أن أنهض إن الجميع في انتظارك! الجميع في انتظاري؟! ومن هم هؤلاء "الجميع" الذين ينتظرونني؟! وعلام هذا الإنتظار؟!

نزلت إلى الصالة وإذا بجميع نزلاء الفندق، وجميع أفراد عائلة فرناندیز قد التفوا حول الموائد العامرة بأصناف عديدة من الطعام والشراب،كما وضعوا زهوراً وأوقدوا شموعاً إن هناك مناسبة ما هذا شيء مؤكد، وهذا احتفال يُقام لتلك المناسبة، ولعل القوم كرماً منهم أرادوا أن أشاركهم احتفالهم هذا فدعوني.

كان من بين الحاضرين ذلك الرجل الذي قام بالترجمة بيني وبين صاحب الجريدة في منزله، إن وجوده هنا سوف يوفر على جهوداً شاقة في الفهم والإستيعاب لما يدور حولي كان مقعدي على رأس المائدة الكبيرة وهي المائدة الرئيسية التي تتصدرالصالة وقد جلس عليها جميع أفراد عائلة فرناندیز، منهم شيوخا وعجائز لم أقابلهم من قبل. عادةما يشغل المقعد على رأس المائدة أكبر أفراد العائلة سناً أو المحتفى به!!

وقفت السيدة رونْ عميدة عائلة فرناندیز وأقربائهم وأنسبائهم وأخذت تتحدث وهي تشير إليَّ. ثم أخذ المترجم الذي دعُي خصيصاً لهذه المناسبة يشرح ما التبس على قائلا: "تقول السيدة رونْ، إنه نظراً للأثر الذي تركته في قلوب جميع أفراد العائلة، ونظراً لأنك سوف تغادر المدينة هذا المساء، فإنه من دواعي سرورهم أن يقيموا لك هذا الحفل البسيط تعبيراً عن حبهم العميق وتقديرهم لك. وإنه يسعدهم القول إن هذا المنزل هو بمثابة منزلك الثاني، وإنك ستكون في الزيارات القادمة ضيفا خاصاً وصديقاً شخصياً للعائلة، وليس مجرد زبون عابر".

ثم تناوب جميع أفراد العائلة إلقاء كلمات الترحيب والوداع كعادة شعوب أمريكا اللاتينية.. إذا هذه الضجة كانت لي أنا؟!، وقد حسبت أن هناك عيداً لأحد "القديسين"!! أو مناسبة ما! ولكن هل هناك أفضل من سكان أمريكا اللاتينية في انتهاز الفرص للإحتفال بأية مناسبة؟

كان على أن أرد على تلك المجاملة الرقيقة بكلمة وألقيتها بالعربية زعماً لهم أنها ستكون أكثر واقعية وصدقاً وهي تعبر عن تقديري لهم، ما أن أنهيت كلمتي التي لم يفهم منها أحد سواي، حتى طفرت دمعتان من عيني السيدة رونا.. وقامت من مقعدها لكي تعانقني وسط تصفيق الحضور ولقد رفضت بإصرار أن تتقاضى مني بقية الحساب رغم محاولاتي.

خلعتُ ساعتي الرخيصة ذات الأرقام الغبارية (التي نستخدمها نحن أهل المشرق العربي ولا نظير لها في العالم وهي ليست أرقام عربية بالمناسبة بل الأرقام العربية هي تلك الأرقام التي تستخدمها سائر شعوب العالم والمغرب العربي) ووضعتها في معصم السيدة رونا على سبيل التذكار من عابر سبيل عربي مر بمدينتهم، وأقام في مسكنهم. فرحت بها فرحاً شديداً ولم تأخذها إلا بعد أن تأكدت أنني أحمل غيرها.

الإبحار إلى قاع العالم!

هاتفتْ ماريا وردت عليها السيدة روزْ، قالت إنها سوف تأتي إلى النـُزلِ لكي تأخذني إلى السفينة. شكرتها روزْ وقالت لها لا داعي لذلك فنحن سوف نأخذه إلى هناك لتوديعه.. تركت في النـُزلْ بعضا من المطبوعات والصور عن دولة قطر وعلمين صغيرين كانا موضع احتفاء من أصحاب النـُزل. ثم غادرت معهم في سيارتهم إلى الميناء، وكنت أول راكب يصل إلى السفينة.

أخذت أمتعتي إلى السطح، تأكدت من وجود اسمي على القائمة.. وضعت حقائبي في مخزن السفينة إلى حين تخصيص غرفة "كابينة" لي أو كما نسميها نحن البحارة قمرة وهي ليست بالطبع تلك "القمرة" الكندية المسئولة عن تدوين أسماء الركاب!

ثم حانت ساعة الوداع، وكان وداعاً مؤثراً حزيناً بين عائلة فرناندیزوبيني وأخذت "غولرمينو" إبنة روزْ توصي بي طاقم السفينة خيراً كأنني طفل صغير!

إكتمل وصول الركاب عند الخامسة مساء، جميعهم من الكنديين والأمريكيين ما عداي أنا واثنتين من بنات مدينة أشوية تعملان في مطبخ السفينة ضمن طاقمها. معظم الركاب من العلماء وأساتذة الجامعات أصحاب التخصصات المختلفة والمصورين والرسامين والفنانين والشعراء والكتاب والفلاسفة أو المفكرين والأغنياء الذين سئموا المدن الكبيرة والحياةالصاخبة فيها وجاءوا يبحثون عن البساطة في هذه السفينة والطبيعة البكر في قارة أنتاركتيكا.

كانت تقف بجوار سفينة الأبحاث الكندية "نورثرن رينجر" التي سوف أبحر عليها سفينة ركاب عملاقة، بدت كأنها الطود العظيم، وسفينتنا بجوارها كأنها زورق صغير. ذلك النوع من السفن يحمل على ظهره الأغنياء الذين يرغبون في زيارة أنتاركتيكا ومشاهدة

الطبيعة البكر فيها وهم في مدينتهم العائمة الصاخبة الفاخرة! والتي تحتوي على جميع وسائل الترفيه التي قلما يوجد مثلها في أكبر وأضخم الفنادق، وأرخص تذكرة لهذا النوع من السفن تفوق الستة آلاف دولار لرحلة واحدة ولمدة ١٢ يوماً، وهو مبلغ لا قبل لي به، كما أن هذا النوع الفاخر من السفن لا يستهويني وإن كنت قد جربته كثيرا في شمال أوروبا كما ذكرت ذلك في كتابي "إلى سقف العالم".

أبحرتَ السفينة في موعدها المقرر وهو السادسة مساءً، أخذت مدينة "أشوية" تبتعد رويداً رويداً، وبالطبع فإن السفينة هي التي كانت تبتعد ومدينة أشوية محاطة من جميع الجهات بالجبال ما عدا جانب البحر المتصل بقناة بيغل. إختفت المدينة عن أنظارنا ولم يبق منها سوى رؤوس الجبال وقد اعتمرت قممها قلنسوات بيض بفعل الجليد المتراكم عليها.

الركاب خليط عجيب من أصحاب الهوايات والمواهب، وعليَّ ألا أبدوا مختلفاً عنهم ولكن ماذا عساي أن أكون سوى مجرد مغامر، كنت منذ أيام خلت في أدغال الأمازون، ثم الآن مبحراً إلى قاع العالم، وغداً لا أعرف أين المستقر!.. لقد ميزني القوم عن بقية الركاب بسحنتي العربية التي لا تخطئها عين، كما أنهم لاحظوا اهتمام طاقم السفينة والباحثين أو العلماء العاملين عليها بي وذلك بسبب وصولي المبكر عنهم للسفينة واختلاطي بطاقمها الذين سرعان ما اكتسبت مودتهم..

كان من بين الركاب شيخ كندي وزوجته تجاوزَ الستين من العمر، إلا أنهما دائمي المرح والصخب كأنهما لا يزَالا في سن المراهقة، وهما من الأغنياء الذين سئموا حياة المدن.. أستاذ جامعي أمريكي "بروفيسور" يعمل أستاذاً للتاريخ في إحدى الجامعات الأمريكية وزوجته أستاذة اللغات في نفس الجامعة، سوياً يتحدثان عدة لغات.. مجموعة من

المصورين المحترفين حملوا معهم معدات وآلات تصوير كثيرة وغريبة، عدد من أساتذة الفلسفة والأدب في الجامعات الكندية والأمريكية، علماء أحياء ومحيطات، باحثين من ألاسكا وكندا من الشباب يعملون ضمن طاقم السفينة "حجة وحاجة" كما يقول المثل منها يحصلون على بعض النقود التي تعينهم في دراستهم، ومنها يمارسون أبحاثهم ويزيدون معارفهم وعلومهم خاصة ومنهم متخصصون في حياة الحيتان وطيور البحر وعجول البحر وغيرها. هذا إضافة إلى عدد من العجائز كن خير تسلية لي في وحدتي على ظهر السفينة بثرثرتهن التي لا تنتهي..

رأس هورن.. وأكبر مقبرة سفن في العالم!

تقع مدينة أشوية، كما ذكرنا على خليج صغير، هو أشبه بالقناة الطبيعية كأنها حُفرتَ حفراً، خرجنا من ذلك الخليج إلى قناة واسعة تصل ما بين شرق القارة وغربها وهي قناة "بيغل" على اسم سفينة الكابتن "فيتزروي" وهو أول من اكتشف تلك القناة وكان وصفه لها هو الذي اعتمدت عليه المحكمة الدولية في حسم النزع الذي نشب بين الأرجنتين وتشيلي في ملكية الأراضي أو الجزر التي تقع جنوب القناة، حيث تمسكت تشيلي بوصف الربان الملاح.. فيتز روي" ففازت، بينما قدمت الأرجنتين وصف دارون لها الذي كان على نفس السفينة فخسرت. كان دارون عالماً طبيعياً،بينما كان الكابتن "فيتز روي" ملاحاً ضليعاً في رسم الخرائط البحرية لذا فقد فازت حجته، ولم يكن مقدراً لها أن تفوز لولا دهاء أهل تشيلي الذين تبنوها وقدموها حجة دامغة لهم للمحكمة الدولية.

خرجنا إلى البحر المفتوح، وأصبحنا نبحر في ملتقى المحيطين، الأطلسي والهادي إذ أن الفاصل بينهما خط وهمي لا وجود له، ثم توغلنا جنوباً إلى حيث تقع أخطر منطقة ملاحية في العالم، رأس هورن حيث يلتقي البحران، هذا عاصف عنيف وذاك مزمجر غاضب، يتلاطمان ويتصارعان عند تلك الصخرة العنيدة التليدة وويل لمن يمر بينهما وهما في صراعهما الأزلي، فكم من المآسي والكروب والنكبات التي شهدتها تلك الصخرة.. كم من نداءات الإستغاثة والعويل سمعتها ولم تلق لها بالاً فهل هبت يوماً لإنقاذ أحد؟ أو تضميد جروح أحد، لم نسمع بهذا من قبل.. إذا إلى ما نحث الخطى؟! إلى ذلك المكان المرعب! ونحن نعلم علم اليقين أنه لن ينقذنا أحد من مصيرنا إذا ما غضب علينا البحران وانهالت علينا الرياح بسياطها!

كتب دارون عن تلك المنطقة في يومياته يقول: "حتى الشيطان نفسه سوف يتجمد هنا!"، كما وصفها العديد من الملاحين والربابنة بأنها نهاية العالم وعتبة الحجيم!! لقد غاص في تلك المنطقة أكثر من ٨٠٠ سفينة، بدءاً من المراكب الشراعية في الزمن القديم إلى سفن الشحن الحديثة. والغالبية العظمى من تلك السفن اختفت دون أن تترك ورائها أي أثر اللهم سوى علامات ترسم على الخرائط الملاحية طبقا لموقع اختفائها المفترض. من بين الضحايا السفينة الألمانية "دكتور هانسن" التي غرقت ولكن تركت أثراً، وكان أثرها هو جرسها الذي إنتشل من حطامها ويستخدم حالياً لاستدعاء الضيوف لطعام العشاء في أحد الفنادق في "كابوسان بابلوا"!.

تتحمل تشيلي والأرجنتين النصيب الأكبر من السفن الغارقة، كما هلك مع تلك السفينة أكثر من عشرة آلاف ضابط وبحار.. ويعود السبب الرئيسي لغرق تلك السفن وهلاك العاملين عليها إلى العواصف والأعاصير التي تتميز بها تلك المنطقة إلا أننا قد نصاب بالدهشة إذا عرفنا أن جزءاً يسيراً من تلك الحوادث كان سببها شركات وربابنة لا ضمير لهم، استخدموا الأخطار الملاحية التي تتميز بها تلك المنطقة، لإغراق سفنهم فيها بغية الحصول على تعويضات ضخمة من شركات التأمين لسفن هم أغرقوها بأنفسهم وبضائع باعوها مسبقاً لحسابهم!. ومهما يكن من أمر، فستبقى تلك المنطقة مصدراً خصباً للقصص والحكايات، بل والخرافات والأساطير عن القراصنة والمغامرين.

قصة اكتشاف رأس هورن..

"كيب دي هورن" أو "كيب دي هورنو" كما ينطقها سكان الأرجنتين، و "هورن" باللغة الإنجليزية، أو "هورنو" باللغة الأسبانية كلمة تعني قرن ورأس هورن يشبه بالفعل قرن قارة أمريكاالجنوبية المشهر صوب الجنوب، فكأنما رامت أن تناطح به القارة القطبية الجنوبية. ولكن هل سمي بهذا الاسم نسبة إلى القرن؟.

في شهر يونيو من عام ١٦١٥م غادرت جزيرة "تيسكل" سفينتنان هولنديتان الأولى اسمها "كونكورد" وكان يقودها الربان الهولندي "سخوتن" قائد البعثة والثانية اسمها "هورن" وكان يقودها شقيق الربان سخوتن ولقد زودت السفينتان بحوالي ٢٩ مدفعاً و٦٥ بحار وضابط .

أبحرت السفينتان بإتجاه سواحل أمريكا الجنوبية بهدف المرور من مضيق ماجلان والذي تم إكتشافه حديثاً من قبل الملاح البرتغالي الأصل "ماجلان" وبعد مرور أكثر من أربعة أشهر على إبحارهما، أصيبت سفينة القيادة "كونكورد" بعطب في قاعها نتيجة اصطدامها بالصخور، وأثناء مجاهدة البحارة في إصلاح العطب اندلعت النيران فجأة في السفينة الثانية "هورن"وانتشرت بسرعة رهيبة، وكافح بحارة السفينة كفاحاً مستميتاً لإنقاذها، ولكن عندما تبين لهم استحالة إنقاذها تركوها بعد أن أنقذوا ما أمكنهم إنقاذه من مؤن وذخيرة، ونقلوها إلى سفينة القيادة "كونكورد" وتركوا "هورن" لمصيرها المحتوم حريق وغريق!

ثم أبحرت "كونكورد" بعد إصلاحها إلى مضيق ماجلان، ولقد حاول الربان سخوتن جهده المرور من المضيق بإتجاه المحيط الهادي، ولكن شركة الهند الشرقية الهولندية التي احتكرت الملاحة في المضيق رفضت طلب سخوتن الذي أسقط في يده إذ أنه لا يعرف كغيره من ربابنة السفن طريق آخر!

بيد أن "لومير" كبير ضباط سخوتن ومساعده على السفينة "كونكورد" كان لديه هاجساً يلح عليه بوجود منفذ إلى المحيط الهادي جنوب القارة. ونزل سخوتن على رأي مساعده، واتجه جنوبا، إلا أنه واجه مشكلة أخرى لم تكن في الحسبان، وهي الحيتان الضخمة التي كانت تحيط بالسفينة، وكان عليه أن يقوم بمناورات صعبة ليتجنب الإصطدام بها.

وصل أخيراً على نهاية القارة وقاع العالم، شاهد على يمينه جبالاً عالية كأنها خيام عملاقة نصبت في وسط المحيط وتغطي قممها الثلوج، ويبرز من أحدها وفي اتجاه الجنوب رأي حاد كأنه رأس حربة ضخمة أما على يساره فلم يكن هناك سوى الأمواج المتلاطمة على مرمى البصر.

أخذ سخوتن يدور حول تلك الجزر الصخرية الشديدة الوعورة والخطورة بحذر شديد موجهاً مقدمة سفينته نحو الغرب، ثم الشمال مستعيناً برأي الحربة العملاقة التي أطلق عليها اسم "رأس هورن" أو "كيب هورن" على اسم السفينة المنكوبة التي اُحترقت ثم غُرقت قبل ذلك، كان هذا الإكتشاف في ٢٥ ديسمبر ١٦١٥م.

تخلصت سفينتنا "نورثرن رينجر" من المسالك والممرات الملاحية الوعرة والأمواج الهائلة بعبورها منطقة رأس هورن المرعبة، وأخذت "تحث الخطى" لا تلوي على شيء مبحرة نحو الجنوب غايتنا وهدفنا. إلى القارة القطبية المتجمدة حيث لا يفصل بيننا وبين "العصر الجليدي" سوى يومين من الإبحار وأقل قليلا من ألف كيلو متر، هي المسافة ما بين قارة أمريكا الجنوبية وأقرب نقطة إليها في القارة القطبية والتي تقع في رأس شبة جزيرة "أنتاركتيكا". أو "أرض غراهام" حسب التسمية الإنجليزية، أو "أرض بالمر". حسب التسمية الأمريكية وهي تسميات سوف نتعرض لها بالشرح عند وصولنا القارة إن شاء الله تعالى بعد يومين من الإبحار.

هذا عشاؤنا الأول.. فكيف الأخير؟

كلما توغلنا جنوباً، كلما ازداد النهار طولاً والليل قصراً، حتى تلاشي الليل تماماً عند وصولنا إلى قاع العالم. والله سبحانه وتعالى خلق لنا الليل لباسا والنهار معاشاً، وهي نعمة لا يعرف قيمتها إلا الذين يعيشون في خطوط العرض العليا عند القطبين أو بالقرب منهما ذلك أنه لا يكفي فقط "إظلام" المكان اصطناعياً بإسدال الستائر أو نحو ذلك، بل إن الشعور الداخلي بالإسترخاء والرغبة في النوم لا تتوفر إلا في الليل، والعكس صحيح يصيب الجسم الخمول والكسل في أيام الشتاء المظلمة في تلك المناطق، حتى لو قضي المرء جُلّ يومه نائما او مسترخيا! لذا فإن تلك المناطق ستبقى مهجورة ولا يقيم فيها إلا من أجبر على ذلك كالعلماء الذين يعيشون في القارة المتجمدة.

نودي للعشاء في ليلة الإبحار الأولى، إنتظمنا جميعا في الممر المؤدي إلى مطعم السفينة.. "إنها الليلة الأولى، ولابد أن الطاقم قد أعد لنا عشاء دسماً يعوض سفرنا المتواصل منذ أن غادرنا مدينة بيونس أيرس صباح هذا اليوم وحتى وصولنا مدينة أشوية مساء". هذا ما علق به أحد الركاب، وهو مصور محترف ضخم الجثة، لم يجد لآلاته ومعداته الكبيرة والمتعددة مكاناً في قمرته، فتركها في صالة الركاب الرئيسية في حقائبها الضخمة تحميها من إهتزاز السفينة المتواصل وتأرجحها بفعل الأمواج العنيفة.

وجدتها فرصة مناسبة لأتعلم منه مبادئ التصوير في هذه الرحلة، خاصة وأنني قد اشتريت مصورّة "كاميرًا" حديثة جداً وغالية الثمن! إلا أنني لازلت أجهل الكثير من إمكانياتها التقنية العالية.. تجاذبنا أطراف الحديث وكان بالطبع عن التصوير وطرائقه المتعددة وأساليبه.. إلا أن جاءنا الدور، فتناول كل منا صينية من اللذائن "البلاستيك وضعت أنا في صينيتي تفاحة وكسرة خبز وزجاجة من المياه المعدنية الفوراه، ثم قدمت لنا

إحدى الفتاتين الأرجنتينيتين العاملتين على ظهر السفينة طبقاً من الحساء "الشوربة"، ثم جلسنا على إحدى الموائد ذات الأربع مقاعد لكي نكمل ما بقي من حديث عن التصوير.. جاء بعدنا العجوز الكندي الثري وزوجته وانقلبت السكينة والهدوء إلى صخب وضحك وذلك بفعل تعليقاتهما وقفشاتهما الطريفة الضاحكة. أنهى المصور طبق الحساء بسرعة فائقة.. وقال لا أستطيع الإنتظار حتى تفرغوا أنتم، سوف أتي بالطبق الرئيسي وأرجو أن يكون قطعاً من الشواء "ستيك" فإنني أتضور جوعا.

عاد الرجل بعد برهة بطبق آخر من الحساء، علق الكندي على ذلك بقوله: يبدو أنهم يصنعون حساءهم من الجعة، ها قد عدت بطبق آخر، هل طاب لك الحساء؟ رد المصور قائلاً: هل تصدق أن العشاء الذي جمعونا له هذه الليلة هو هذا الحساء فقط؟! ماذا؟ سأل الكندي وأضاف: حساء فقط؟ علقت بدوري على الموقف: كرم الضيافة وفي الليلة الأولى إذن ماذا سيكون عشاؤنا في الليلة الثانية؟!، بل ماذا سيكون "عشاؤنا الأخير"؟! والعشاء الأخير يُقصد به عند المسيحيين تلك المائدة التي أنزلها الله جلت قدرته على سيدنا عيسى بن مريم وحواريه، وكانت عامرة بكل ما لذ وطاب من صنوف الطعام. وقصدت بهذا القول ذلك المعنى وأيضاً عشاءنا الأخير على السفينة إذا أن عشاؤنا الأول هو مجرد طبق من الحساء!!

عاد المصور بالطبق الرابع من الحساء، فقلت له: لا تكثر من الشراب حتى لا تترنح وكان يترنح فعلاً بفعل الأمواج العالية التي تتقاذف السفينة قال: إنني أترنح فعلاً من شدة الجوع، وما هذه إلا سوائل لا تقيم لي أوداً.. كان ينبغي عليهم أن يخبرونا بأن نحضر طعامنا معنا!!.

ما بين القطبين.. سباق وأمجاد

لقد خطر في ذهني سؤال وأنا فوق سطح السفينة أتأمل طيور البحر وهي ترافقنا في إبحارنا لا تكل ولا تمل!، هل من أسباب توازن الأرض أن تكون القارة القطبية الجنوبية تلك الكتلة العملاقة من اليابسة التي تغطيها الثلوج في قعرها أي في قعر الأرض، بينما قمة الأرض في المنطقة الشمالية المحيطة بالقطب الشمالي خالية إلا من ماء البحر؟!

لو تأملنا الكرة الأرضية لوجدنا أن كل جزء اليابسة أو كل قارة، يقابلها على الجانب الآخر محيط! وأن المحيطات أكبر مساحة من اليابسة على كوكب الأرض. ولأن الأرض ليست مجرد كتلة جامدة لا حراك فيها، بل إنها تدور حول محورها بسرعة كبيرة جداً، إذا وجب أن يكون هناك توازن دقيق بين مكونات هذه الكتلة خاصة وأنها غير متجانسة ماء وتراب ونبات وهواء ، وغير ذلك مما لا نعلم! صُنع الله الذي أحسن كل شيء صنعاً.

لعله من الواجب أن أشير – ولو سريعاً – إلى قصة إكتشاف القطب الشمالي! إستكمالاً للفائدة، طالما أنني قد خصصت هذا الكتاب للحديث عن القطب الجنوبي.

أول من وصل إلى القطب الشمالي وحدده هو مهندس بحري أمريكي اسمه "روبرت إدويت بيري" بعد أن بذل جهوداً جبارة للكشف عن القطب الشمالي. وكان "بيري" يعلم بوجود القطب الشمالي في مكان ما من قمة الأرض، ولكن أين يقع بالضبط؟ ذلك كان هدف مغامراته.

رسم بيري خطة محكمة للكشف عنه وتحديده وأعد للأمر عدته، بادئاً بالأصقاع الشمالية من جزيرة "غرينلاند" الدانماركية تلك الجزيرة العملاقة التي تقع في سقف الكرة الأرضية وأخذ يتفقد الطريق إلى القطب ثم عاد إلى بلده وصمم سفينة تناسب تلك الطبيعة القاسية والبحار الجليدية الصعبة.

حمل معه في رحلته الثانية عدداً من "الأسكيمو" مع كلابهم التي تمرست على جر الزحافات الجليدية وذلك ليقينه بأنه ربما لن يصل بسفينته إلى نقطة القطب وأنه قد يحتاج إلى الزحافات التي تجرها الكلاب للوصول إليه "زحفاً"! ولقد صدق حدسه إذ واجه وهو في إبحاره إلى القطب، كتلاً جليدية ضخمة كانت عائقا له من الإبحار، كما وجد أيضاً أنه من المستحيل إستخدام الزحافات التي تجرها الكلاب نظرا لوجود فجوات وشقوق في المياه المتجمدة.

عاد "بيري" مرة أخرى إلى بلده لكي يعد لرحلة ثالثة، وانطلق في رحلته الثالثة مع صديقه الزنجي الأمريكي "مات هينسن" ومعهما أربعة من الأسكيمو. حيث وصل الجميع إلى نقطة القطب الشمالي في السادس من شهر أبريل سنة ١٩٠٩ وقضوا هناك ثلاثين يوماً لإجراء البحوث العلمية وقياس عمق المحيط الذي وجوده يزيد على ثلاثة آلاف متر.

في تلك الأثناء، كان المغامر النرويجي "رونالد أمندسن" والذي حقق مجداً عظيماً وشهرة عالمية فيما بعد، يعد العدة لقيادة بعثة للكشف عن القطب الشمالي بعد محاولات سابقة إرتاد فيها المنطقة الشمالية وأبحر في المحيط المتجمد الشمالي وعندما وصلته أنباء نجاح "بيري" في الوصول إلى القطب الشمالي، أوقف محاولاته وأخذ يفكر بجدّية في الوصول إلى القطب الجنوبي وتحديده حتى لا يسبقه أحد إلى تحقيق ذلك المجد، لأنه ببساطة لا يوجد على الأرض سوى قطبين، القطب الشمالي وقد حدده "بيري" إذاً لم يبق سوى الجنوبي..